(14)

لقاء الأحرار

الزمان: 27 نوفمبر 1948م

المكان: عراق المنشية / الفالوجا

عمدت القوات المصرية لتدعيم حراسة الكوبري الواصل بين عراق المنشية والفالوجا، وتكررت زيارة الجيب اليهودية ذات العلم الأبيض لعراق المنشية بهدف التفاوض حول موضوع الجرحى، وقد تأكد للجميع من حرصهم على تسليم الجرحى كأسرى أن لهم مصلحة حيوية في الأمر، لم يكن دافعهم إنسانيًا بطبيعة الحال.

في صباح 14 نوفمبر، جاء الضابط اليهودي بالأدوية التي تم الاتفاق عليها، كان شابًا في نهاية العشرينيات من عمره، وحاول كعادته التودد لجمال في حديثه، فبدأ بسؤاله عن الجو في القاهرة وهل يكون ممطرًا في هذا الوقت من العام، فأجابه «جمال» باقتضاب كعادته قائلًا:

- نعم.

- أرجو أن يسود السلام وتعودوا جميعًا للقاهرة سالمين.

لم يجبه «جمال» وإن ظل ينظر في عينيه، يحاول اكتشاف ذلك العدو المجهول الذي يحاربه منذ شهور. تحدث الضابط اليهودي يحاول فتح موضوع للحوار بقوله:

obeikandi.com

- أتعرف؟ الإنجليز هم السبب في وجودنا جميعًا هنا ، وفي هذه الحرب بالذات! لقد نجحنا في الحصول على استقلالنا عنهم، ونرجو أن تحصلوا على استقلالكم كذلك. وقتها يمكننا قطعًا أن نتعاون من أجل بناء بلادنا.

- ستمطر من جديد ، سأعود للمعسكر.

تخلص منه «جمال» بتلك العبارة وهو ينظر للسماء. ثم يأخذ الأدوية ويعود أدراجه ليعبر أسلاك عراق المنشية.

هل يمكن أن يكون هذا الفتى مقتنعًا بما يقول؟ هو يعرف يقينًا أن هذه الأرض ليست أرضه! لم يولد فيها ولم يكبر في رحابها ، ولم تملأ ذكرياته أركانها! لقد جاء من بلاد بعيدة ، هو يعرف ذلك كما يعرفه "جمال" تمامًا ، ولكنه تكتيك اليهود المعتاد ؛ الإيحاء بأمر يريده وكأنه الأمر الواقع. هكذا تكون صناعة اليأس! فلا شك أن اليهود لا ينوون خوض الحرب ضد العرب للأبد ، ولكنهم يريدون النوع الذي يناسبهم من السلام؛ سلام اليأس الذي يفرض على الآخر قبوله بالهوان والتنازل عن ثوابته.

هكذا فكر «جمال» ، وفكر كذلك فيما حصلوا عليه من اليهود بعد جولتين من التفاوض الميداني؛ بعض أدوية قد تخفف الآلام ولكنها أبدًا لن تشف الجراح؟ أهذا كل شيء؟ وهل كان هذا يستحق؟ هذا العدو لا يستجيب حتى لما تلميه أخلاق الحرب ومعاهداتها من معاملة الجرحى والأسرى. ولا يحترم وقف إطلاق النار إلا ريثما يتخذ مواقعه ويحصن دفاعاته ثم يبدأ خرق الهدنة!

obeikandl.com

لماذا كان الخرق في كل مرة من جانب اليهود وليس الجيوش العربية؟

كانت هذه الفكرة مضمار حوار دار بينه وبين «السيد طه بك» وزميله «الفسخاني»، كان «جمال» يقترح استغلال ما بقي من المدفعية في كسر وقف إطلاق النار وقصف مواقع العدو في «شمال العظاطة» و«الوحيدات»! لكن القائد يرفض فكرة كسر إطلاق النار! ويفضل استخدام الذخيرة النادرة في الدفاع عن عراق المنشية والفالوجا.

في تلك الليلة نام «جمال» محزونًا من تلك الروح التي سيطرت على الجميع حتى قائده الشجاع. ولكن جندي مراسلة أيقظه ليستقبل هاتفًا بعد منتصف الليل!

كان المتحدث هو «صلاح سالم» يهاتفه من قطاع السودانية القريب منهم في الفالوجا، ويخبره بأنه جاء من غزة وفي طريقه إلى عراق المنشية!

عند الفجر وصل «صلاح سالم» وكان في حالة بالغة من التعب والإرهاق وملابسه مهترئة! وبعد أن شرب كوبًا من الشاي وغير ملابسه، بدأ يحكي ما جرى له.

اتحركت من غزة مع «زكريا محيي الدين»، وتلاتة ولاد عرب ومعاهم تلات بغال محملة بذخيرة الأفراد وبعض المأكولات والأدوية، وكان معايا ميتين جنيه ومع «زكريا» زيهم، علشان تستعينوا بيهم على شرا بعض لوازمكم من الأهالي! الولاد قالوا لنا المسافة ست ساعات، ومع ذلك فضلنا طول الليل ماشيين، وعدت علينا أكتر من دورية يهودية، فكنا بنتدارى منهم في مجاري

السيل على جنب الطريق، وكان كل واحد منا يكمم بغل من البغال بإيده .. البغال كانت هتفضحنا.

قالها «صلاح» باسمًا، لكن «جمال» علق واجمًا:

- إحنا وصلنا للدرجة دي؟ إمداد وتموين بأسلوب القرن الخامس؟ معلش يا «صلاح»، إنتو تعبتم قوي علشان توصلوا لنا التعيين والذخيرة دي .. بس هي فين الذخيرة والتعيينات صحيح؟

- يا عم إستنى بس .. إنت لسة سمعت حاجة من اللي جرالنا؟!

استمر «صلاح سالم» يروي كيف داهمتهم دورية يهودية بالنيران، فتشتت شملهم، حيث جرى «زكريا» والعربان نحو الشمال وجرى هو جنوبًا، واليهود انشغلوا عنهم بغنيمة البغال. بينما ظل «صلاح» يزحف محترزًا من دوريات اليهود حتى رأى تبة عراق المنشية بعينيه، فعاد له نشاطه، وعندما اقترب من السلك الشائك في قطاع السرية السودانية أطلقوا نحوه النيران، فصاح بأنه ضابط مصري وعرف اسمه ووحدته، وبهذا أمكنه الاتصال بجمال، وصحبه السودانيون إلى هنا.

بعد ساعات اتصل «زكريا محيي الدين» من الفالوجا، فعرفوا منه أنه اختبأ في بئر مهجورة حتى مرت الدورية اليهودية، ثم تحرك نحو الفالوجا لقربها منه. توجه «جمال» و«صلاح» للقائه في الفالوجا، ومروا من نيران المواقع اليهودية بصعوبة[39].

(39) أحداث محاولة صلاح سالم وزكريا محيي الدين توصيل الإمداد بهذه الطريقة البدائية للقوات المحاصرة كلها من واقع المذكرات.

في الفالوجا جلس الرفاق الثلاثة حول أكواب الشاي، وهم في حالة استرخاء ما بعد الجهد والقلق. طرح «صلاح سالم» موضوعًا قرأه في «روز اليوسف» عندما كان في غزة، الصحفي الشاب «إحسان عبد القدوس» طرح في مقالاته موضوع الأسلحة المستعملة من مخلفات الحرب العالمية التانية التي وصلت للجيش في فلسطين! والتي أرسل بعض قادة الكتائب شكاوى حول أدائها للقيادة العامة في القاهرة.

تحدث «جمال» قائلًا:

- كويس إنك فتحت الموضوع ده، قصرت عليَّ السكة. أنا عارف إنكم تعبانين، ومع ذلك مش ضامن هنتجمع تاني إمتى. علشان كدة عاوزكم تصحصحوا معايا شوية علشان نقول كلمتين مهمين. الظباط الأحرار لازم نشاطهم يزيد خلال فترات الهدنة في الحرب دي، خصوصًا في ظروف الحصار. لازم نجتذب عدد أكبر من الظباط الوطنيين، واللي نحس منهم الرغبة في تغيير الأوضاع المذرية اللي حسيناها كلنا هنا في الميدان.

- لكن توسيع قاعدة العضوية في التنظيم خارج نطاق الظباط اللي عارفينهم وضامنينهم كويس هيكون خطر يا «جمال»!

- صحيح، لكن مفيش اختيار تاني يا «صلاح»! التغيير أصبح حتميًّا، ومفيش مسارات صحيحة للتغيير غيرنا.

هكذا بدأ «جمال» حديثًا طويلًا، تناول فيه الأوضاع الداخلية في مصر، وكيف أن النخب الوطنية القليلة لا تنتظم بشكل تنظيمي فعال يجعل لها أثرًا إيجابيًا في الحياة السياسية! حزب الوفد، وهو حزب الأغلبية الذي أسس شعبيته على ثورة 1919م، بقيادة الزعيم «سعد زغلول»، تسربت إليه قوى الإقطاع والرأسمالية فقوضت ثوريته من الداخل! والإخوان المسلمون بتركيبتهم المغلقة وأحلامهم السلطوية غير المؤسسة على خطة نهضوية لا يصلحون لتحقيق النهضة التي تحتاجها مصر. وبقية الأحزاب ديكورات سياسية. فمن هو التنظيم الباقي غير الجيش؟ وختم كلامه قائلًا:

- الجيش هو قوة الشعب الصلبة، وفي ظروف العالم التالت اللي الاستعمار تعمد إفساد النخبة السياسية فيها، مفيش طريق تاني للتغيير.

طال الحوار وتشعب كثيرًا، واستقر الرأي في النهاية على توسيع قاعدة العضوية في تنظيم الضباط الأحرار، بداية من هنا .. من أرض فلسطين التي تجسدت بها محنة العروبة كلها.

وقبل النوم وصلتهم أخبار القوات العراقية التي حاولت كسر حصار القوات المصرية في الفالوجا، ولم تسمح لها القوات الأردنية بقيادة البريطاني «جلوب» بالمرور من مناطقها!! ورفعت بوجهها الحجة التقليدية القاتلة: ماكو أوامر!

(15)

نهاية البداية

الزمان: 15 فبراير 1948م

المكان: الفالوجا

انتهت المعركة .. ولم تنته الحرب!

فقد فرضت هدنة ثالثة في 7 يناير 1949م، وهذه المرة لم يخرقها اليهود! ثم اجتمعت أطراف الحرب في جزيرة رودس، ووقعت الأطراف اتفاقية هدنة نهائية في 24 فبراير 1949م، تنسحب بمقتضاها القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا وعراق المنشية إلى داخل الحدود المصرية، بكامل السلاح والرجال، ووضع قطاع غزة - وحده الشمالي خمسة عشر كيلومترا شمالي غزة - تحت الإدارة المصرية. ووردت الأوامر للقوات المحاصرة بالانسحاب في اليوم التالي نحو غزة. وهكذا كانت القوات تستعد للانسحاب في الخامس والعشرين من فبراير.

كان «زكريا محيي الدين» قد أعد شدته، وجاء من الفالوجا لعراق المنشية ليكون مع «جمال» في رحلة العودة للقاهرة. جلسا معًا في فناء المعسكر الإنجليزي المهدم، يحتسيان الشاي في انتظار تحرك السيارات نحو غزة. قال له «زكريا»:

– كأنك يا أبو زيد ما غزيت!! أول مرة أحس بعمق المثل ده!

obeikandi.com

- مش معاك في الموضوع ده يا «زكريا»! صحيح الحرب دي مغيرتش الأوضاع هنا كتير، لكن هتغير كل شيء في القاهرة. والتغيير في القاهرة هو بداية المعركة الحقيقية، بداية تغيير الوطن العربي كله.

- إزاي؟

أحداث العنف في مصر طول السنة اللي فاتت نتيجة طبيعية لحماقة الدولة اللي سمحت لتنظيم الإخوان بامتلاك السلاح والتدريب عليه. ودلوقت كل الأطياف السياسية اتجرت للشكل ده، بما فيها القصر نفسه! تفتكر ده وضع ممكن يستمر؟

كان «جمال» يرى العديد من التداعيات وهي تتراكم في سماء القاهرة من جراء الحرب. وقد صدقت رؤياه! امتلك الإخوان المسلمون السلاح وتدربوا عليه خلال الحرب، وتلك التنظيمات العقائدية لا تصبر كثيرًا عندما تمتلك أسباب القوة، طبق الإخوان أفكار التغيير بالعنف المسلح في الداخل المصري، وسيكون لهذا تداعيات في غاية الخطورة.

في 22 مارس 1948م اغتالت خلية إخوانية القاضي بمحكمة استئناف القاهرة «أحمد الخازندار»، لأنه حكم في واحدة من قضاياهم. وفي 25 تعرض منزل «مصطفى النحاس» ـ زعيم الوفد والخصم السياسي للإخوان ـ لقنبلة هدمت جزءًا منه! وتكررت محاولة اغتياله في نوفمبر من نفس العام بالرصاص! وقتل

obeikandi.com

اللواء «سليم زكي» حكمدار العاصمة بشظية قنبلة في ديسمبر! فاتخذ النقراشي باشا قرارًا بحل جماعة الإخوان المسلمين في الثامن من ديسمبر! ليرد الإخوان باغتياله بعد عشرين يومًا! كانت هذه بدايات دوامة العنف السياسي التي قرأ جمال تداعياتها قبل أن تحدث، ولم تلبث التداعيات أن بدأت فور عودتهم للقاهرة!

تحرك «الحرس الحديدي» الموالي للملك «فاروق»، ليرد على اغتيال رئيس الوزراء باغتيال زعيم الإخوان «حسن البنا» في فبراير ١٩٤٩م، وحاول الإخوان اغتيال رئيس الوزراء الجديد «إبراهيم عبد الهادي باشا» ورئيس مجلس النواب «محمد حامد جودة» ونجا الاثنان!

صار جليًا للعيان أن مصر دخلت نفقًا مظلمًا ضعفت فيه الدولة عن إقرار الأمن والاستقرار، ففقدت شرعيتها بعيون مواطنيها، وارتكب فيه الإخوان جرائم العنف المسلح، وتورطت كل التيارات السياسية في العنف، فصار للوفد جماعة مسلحة هي القمصان الزرق، وصار لمصر الفتاة قمصانها الخضر بالمقابل، وللقصر حرسه الحديدي، وللإخوان التنظيم الخاص قبلهم جميعًا! صار واضحًا للعيان أن مصر تحتاج لثورة تقلب الأوضاع، وأن أيًا من تلك الأطراف التي تكالبت على غنيمتها لن تكون في صدارة تلك الثورة. ووصلت المأساة لذروتها في حريق القاهرة!

لم يستغرق الأمر ثلاث سنوات وبضعة شهور حتى كانت ثورة 23 يوليو 1952م تنطلق في مصر، لتغير وجه مصر والشرق الأوسط بأسره، وتغير موازين القوى في